131613

الدّكتورة
وسيلة بلعيد بن حمدة
أستاذة علوم القرآن والتفسير
(جامعة الزيتونة)

التفسير واتجاهاته بإفريقية

من النّشأة إلى القرن الثّامن الهجري

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

الطبعة الأولى
1414 هـ - 1994 م

طبع شركة فنون الرسم والنشر والصحافة
القصبة - تونس
الهاتف : 264.988

استهلال

بقلم: فضيلة الشيخ محمد الشاذلي النيفر

أشتهرت إفريقية بناحية من الثقافة الإسلامية وهي الفقه خاصة الفقه المالكي فبرز أعلام مثل علي بن زياد التونسي (ت 188) وأسد بن الفرات (ت 213)وابن أبي سعيد سحنون(ت 240) غطوا على من عداهم. وجلبوا الأفكار إلى الفقه الذي هو وسيلة إلى خطة القضاء وهي السبيل الوحيدة التي يتطلع إليها أهل العلم .

فتوجهت العناية إلى الفقهاء وهناك عناية أخرى بالحديث لأن العناية أولا كانت له فإنه لما دخل محمد بن الأشعث إفريقية واليا قال : « هل في بلدكم أحد من أهل الحديث ؟».

فأشهر علماء إفريقية قبل اشتهار مذهب مالك عبد الرحمن بن زياد بن أنعم (ت 161) كان من رجال الحديث. ورُوي عنه خمسمائة حديث .

ومؤرخ افريقية أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم كان من أهل الحديث حتى ألف حديث مالك الذي ليس في موطئه ،وألف في ثقات الرواة وفي ضعفائهم .

لم يتجه للتفسير مثل الحديث والفقه بإفريقية،لضعف العناية لا للأعراض عنه ، فقد كانت هناك دروس يتولاها علماء القيروان من فحولة الفقهاء،كما ذكر هنا من اقراء أسد تفسير المسيب بن شريك الكوفي،ويضاف إلى ذلك ما أفاده محمد بن الحارث الخشني وفاته (نحو- 366) وهو من مؤرخي الأندلس وإفريقية،في كتابه طبقات علماء إفريقية،في ترجمة سليمان بن عمران قاضي القيروان،من أنّه مع توليه قضاء القيروان،كانت له عناية بالتدريس (وكان له يوم في الجمعة أو يومان يقرأ عليه فيه العلم تفسير القرآن وغيره) .

فإنما الاعتناء في قلة لا تكاد تذكر مما دعا المؤلفين في الطبقات أن لا تنصرف عنايتهم إلى رجال التفسير كما انصرفت إلى المحدثين والفقهاء .

فالتفسير بإفريقية،لم يأخذ حظه الذي يستحقه،بأنه الأصل الأول والعمدة الأساسية في استنباط الأحكام،فلا بد أن تصرف إليه العناية،لإظهار ما ساهمت به إفريقية في ناحية التفسير،حتى لا تتخلف في مساهمتها في الثقافة الإسلامية .

فمحاولة البحث عن هذه المساهمة،لا بد لها من جهد مضن وعمل دؤوب، للظفر بإبداء وجه المساهمة سافرا في البحث عن التفاسير الإفريقية،وإبداء وجه الإتجاهات،مسفرا هو ما جاء في هذا البحث القيم،إذ لم تتقدم للسبق فيه محاولة، لصعوبة الوصول لما ناله من غفلة من الباحثين عن التفسير .

قد تصدى بحث التفسير واتجاهاته بإفيريقية لسدّ ثلمة في الثقافة الإفريقية، كي لا تبقى مغمورة كما عاشته السنين العديدة .

وأظهر البحث،بأن العناية بالقرآن لم تنفك منذ استقرت قدم الفتح بإفريقية ومنذ أقامت البعثة التي بعثها عمر بن عبدالعزيز (ت 101) الخليفة العادل فإنها بعثة مهدت للإسلام ورسخت قدمه .

واستنتاج أن البعثة اهتمت بالقرآن،مما كتبه أبو السعود سعد بن سعود التجيبي وحبان بن أبي جبلة،وطلق بن حابان،من العشرة الموفدين من قبل الخليفة العادل لأهل طنجة ،هواستنتاج هام يشرح أن البعثة فتحت القلوب للإسلام بشرح ما يفيده كتاب الله العزيز.

وإذالم يكن شرح مبادىء القرآن لتفقيه الناس،بماذا يكون التفقيه لهم ؟ فبه تتفتح القلوب للدين إن تصيد هذه الشذرات التاريخية الدالة على أن التفسير لم يعرض عنه بإفريقية،كما يتعلق به بعض من لم يتعمق في البحث ، إبرازٌ لكون الثقافة الإسلامية بإفريقية ذات اتساع،كما هي بالمشرق ولم تخمد جذوتها حتى في الظروف العصيبة،وإنما احتيج لهذه الشذرات التي تركز عليها البحث في بعضه،لأن المؤرخين للرجال الأفارقة،لم يعنوا بالبحث عن رجال التفسير، سواء من المدرسين أو المؤلفين،بخلاف غيرهم فقد أعتنى برجال الحديث أبو العرب في كتابه طبقات ثقات الرجال وضعفائهم. أما عن الفقهاء من المالكية فقد أفاض بما لا غاية بعده القاضي عياض (ت 544) في ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك .

ولم يغمط حق الصالحين ففي تأليف الدباغ (ت 696)(معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان) حظهم في التعريف بالكثير منهم،علاوة عن فقهائها وكذلك ذيله لابن ناجي (ت 837).

وحتى من اعتنى بالتفسير،وهو يحيى بن سلام،لم يشر الى تفسيره أبو العرب في طبقاته ، وقصارى ما جاء فيه عنه (قال أبو العرب ويحيى بن سلام قدم افريقية وكان ثقة ثبتاً وكان له إدراك،لقي غير واحد من التابعين وأكثر من لقي الرجال والحمل عنهم. له مصنفات في فنون العلم ، وكان من الحفاظ) .

اكتفى أبو العرب بهذه الفقرة في ترجمة المفسر النحرير ولعل ذلك لأن تفسيره لم يلق رواجاً في عصر أبي العرب،ويدل على ذلك أن ظهور تفسير ابن سلام البارز،كان على يد أبي داوود بن موسى بن جرير الأزدي العطار،إذ من طريقه انتشر بالأندلس والمشرق ، ويؤكد هذا ما جاء في غاية النهاية من أنه سكن إفريقية وسمع الناس بها كتابه،إذ قد يكون ذلك السماع محدوداً .

وقد اعتنى بتلخيصه عالمان من الأندلس اشهرهما الذي بقي تلخيصه وهو ابن أبي زمنين محمد بن عبد الله (ت399) ويدل ذلك على إقبال أهل الأندلس عليه أكثر من إقبال الأفارقة .

ورغم أنه لم يجد حظه من أبي العرب الإفريقي،قيض الله له من اعتنى بتفسيره في إفريقية التي سكنها ومنهجه،في هذا البحث ، فقد أفاض في التعريف به مع بيان منهجه المبني على طريقة المحدثين في إيراد أحاديث التفسير بإسنادها إلى أئمة التفسير الحسن أو قتادة مع عناية بإيراد أسباب النزول وشيء من السيرة .

ويبدو تعمق البحث في منهجه،مؤيداً بنصوص من تفسيره،بما يتضح به. حيث يتناول التفسير في بعض حالاته،إذ يجمع الآيات المتفقة في المعنى ويتناولها بالشرح. وتظهر بذلك الوحدة الموضوعية في القرآن،وما إلى ذلك من أسلوب في تفسيره كما أنه بين ربط ابن سلام ما يأتي به في تفسير بعض الآيات من الحديث النبوي ، وكل ذلك بأدلة مثالية من التفسير ارتبطت بها الأحاديث في تفسير كثير من الآيات .

ويدل هذا الاتجاه الحديثي المنقول العديد منه،الموزع في التفسير على أن ما قاله أبو العرب في حق ابن سلام،أنه كان من الحفاظ لأن إشباع التفسير بالحديث لا يتأتى إلا لمن كان من الحفاظ،وهو ما نبه عليه أبو العرب حيث وصفه بذلك .

وأوضح البحث اعتماد ابن سلام،على أسباب النزول مع المقارنة بين ما

جاء في تفسيره من ذلك ، وما جاء في بعض التفاسير المشهورة،مثل الواحدي والزمخشري ، فهذه المقارنات بين تفسيره وعمد التفاسير تقوي الثقة في النفوس،بأن ابن سلام مهد السبيل،في ذكر أسباب النزول التي خصها بتأليف خاص الواحدي ومن التدقيق في البحث نرى من ذكر ما أتى به ابن سلام ومن لم يأت به .

ولم يهمل البحث ما لابن سلام من عناية بالقراءات والتفسير اللغوي وتحرير الأحكام والعقيدة .

فإشباع البحث بتوسيع بيان اتجاهات التفسير،يبين أن هذا التفسير أصبح واضح المعالم ومباحثه مفصله في إحاطة شمولية،وأن ما للمفسر من اتساع علمي أهله لأن يكون له اختيارات في القراءات، وهو ما بعث ـ على ما يبدو ـ على أن ينكب بعض العلماء من الأندلس على تلخيصه لأن طول التفسير يثقل كاهل الناسخين بخلاف مختصره ، وبذلك لا تضيع قيمة هذا الكتاب .

فنفاسة تفسير ابن سلام،بدت واضحة في التحليل الدقيق،لكتابه مما ترتفع به قيمته ويتعرف الناس عليه في كل خطواته فهو تفسير جامع ومعلمة تفسيرية لم تكن هناك ناحية من النواحي إلا طرقها ابن سلام .

فهذا البحث قد أحيى من جديد ، وقرب هذا التفسير من الباحثين مما أسبغ على كتابه من روح جديدة بينت من خفاياه وبحوثه،ما ملأ النفوس إكباراً واعتباراً لهذا التفسير،الذي احتضنت إفريقية صاحبه كما أنها احتفظت بالكثير من أجزائه،ورغم ضياع بعضها لا تفتر الهمة متعلقة به حتى يبرز للباحثين في ثوب يستحقه .

التزمت الباحثة تحليل الاتجاهات التفسيرية،مع التعريف بالمؤلف في كل من الكتابين للمؤلفين المتعاصرين الافريقيين أحمد بن عمار المهدي (ت 440) المفسر المقريء ومكي بن أبي طالب القيرواني المقريء الشهير والمفسر (ت 437) .